فعلى شواطئ امريكا اقليم واسع هو أقليم كليفورنيا . هل يعلم القارئ ما هي كليفورنيا التي لا شك الآن في انها حقيقة من حقائق البيان ؟ هي في الخرافات الاسبانية كجزائر الواق في الخرافات العربية ، هي مدينة من مدن الاوهام تخيلها الكاتب الاسباني « منتالفو » في اواخر القرن الخامس عشر وافرغ عليها مسحة من السحر وذهباً من كنوز الخيال التي لا تنفد وجعلها على مقربة من بلاد الهند التي كانت في ذلك العهد كعالم الغيب في اوهام الرواة ، فلما شخصت السفن الى الغرب لترتاد السبيل الى بلاد الذهب والجوهر كانت قصة الملكة كلافيا صاحبة تلك المدينة في وطاب كل ملاح يشق عمار الباب من أجل ذلك السراب ! وكانت « كليفورنيا » هي الاسم الذي اختاره الرواد لارض الكنوز والاعلاق حين تمثل الحلم في وضح النهار ، ولولا تلك الاحلام وما أشبهها لبقيت امريكا في ضمير الغيب ولما أصبحت جزيرة الواق مكاناً معهوداً على خريطة هذا العالم المسور ! ولئن بات العالم خلواً من شواسع الاقطار التي تهدينا اليها الاقاصيص فانّ في اطواء كل نفس لاقطاراً شاسعات لا يزال يهدينا اليها الحلم ولا تزال تشقّ اليها النهار ولا تزال هي الثروة التي من اجلها تنفق الثروة وهي النضار الذي من اجله تطلب النضار

والناس يخطئون فهم « الامريكيات » التي يسمونها بالواقعيات ويذكرون من أجلها الشعريات والخيالات . فما كان أبناء امريكا وسكانها متهافتين على الذهب لانهُ الذهب ولا كالمين المال لانهُ المال . انما يتهافتون على الذهب لانهُ الوسيلة الى ما يتعطشون اليه من إحساس الحياة وامتداد الذي يمدّون به قدرتهم على ان يسلوا عملهم ويشعروا شعورهم ويأخذوا من الآمال بنصيبهم ، فاذا بلغ بهم الذهب أقصى حدوده تجاوزوه في طلب الاحساس الى المخاطرات والمجازفات وركبوا البحر والهواء الى الموت او الى لحظة من الزمن يتجمع فيها من شعور الحياة ما هو وسق أعمار وأجيال

الاحساس هو عملة الحياة لا عملة غيرها ولا يمكن ان يكون غيرها عملة صحيحة ، فكل شيء في هذه الدنيا لا يتحول في نهاية امره الى احساس هو زيف وهباء وهو خديعة وهراء وهو عدم او كالعدم في عالم الاحياء

***

يقول العالم الكبير الاستاذ ارثر كيث في مقاله الذي ترجمهُ له مقتطف ديسمبر الماضي بعنوان اؤمن بالعلم : « اطلعت الآن في صحف الصباح على ان سكان بلادي اسكوتلندا كانوا حينما ولدت منذ اثنين وستين سنة ٣٤٧٢٢٥٠٠٠ نسمة يحرثون ويزرعون ١٤٤٧٠٤٠٠٠ فدان اي ما متوسطهُ نصف فدان للنسمة الواحدة منهم . وقد زاد السكان الآن حتى بلغ

عددهم نحو خمسة ملايين نسمة ونقص مايخرجونهُ من الارض ويزرعونهُ الى ١٤٧٤٠٠٠ فدان اي ان المتوسط نقص الى نحو ربع فدان للنسمة الواحدة ، ومع ذلك نرى سكان اسكوتلندا الآن أوفر راحة ورخاء من سكانها في أواسط القرن الماضي ، فطعامهم ألذ وأكثر غذاء وبيوتهم أكثر راحة ودفأ وملابسهم أليق وأغلى ونظام تعليمهم أرقى وأشمل ونفقاتهم العامة تضاعفت . وما يقال عن اسكوتلندا يقال عن انكلترا وويلس بوجه عام . فكيف تم هذا المستحيل فكيف فعلنا ذلك ؟ لقد حققنا هذا التقدم بإثمار عقولنا التي استعملناها أدوات للعلم . والحق يقال اننا سكان الجزائر البريطانية قد عدنا لا نعتمد على حاصلات ارضنا بل على خصب عقولنا ومنتجاتها . فمساحة بلادنا يجب ألا تقاس بالفدان وألا يبقى على قياسها كذلك ما يمكن ان تسمهُ من السكان . وعلينا ألا نخوف من ازدحام السكان في بلادنا . . قبل أن تبلغ قوانا العقلية حدَّها من التقدم والاكتشاف والاختراع وتصاب عقولنا بالتقم . . . »

لهذا يؤمن العالم الكبير بالعلم ويؤمن برسالة العلماء . فالآن ما يحصل كل هذا ان لم يكن يحصله ان الناس يحسون في هذا العصر أحسن مما قد أحسوا قبل ستين سنة ويتشوقون أحسن مما تشوقوا ويستريحون أحسن مما استراحوا ؟ فالذين يطلبون الحياة بغير أدب يطلبونها بغير احساس لانها لن تحس الا عبرت ولن تعبر تعبيراً جميلا الا كان لها أدب في صورة من صور الأدب

***

ومن المقارنات الخاطئة ان يوضع العلم في المكان المقابل للادب كأنَّ العلم يمنع الادب او كان الادب يمنع العلم او كان الامم لا يمكن ان تتفق لها علوم وآداب في وقت واحد . فكل أمة تحسن التشوق والاستطلاع تحسن العلم وتحسن الادب ، وكل علم لا يكون باعثهُ الشعور الصادق بالحياة ولا تكون غايتهُ من هذا القبيل هو علم كالجهل او لعل الجهل خير منهُ لان الجهل كان في الدنيا وكان فيها العظماء والسعداء والغالبون والفاتحون ، بل كانت الشمس تدور حول الارض في نظر ألوف من سكان هذه الكرة السابحة في الفضاء كانوا أعظم وأقدر من أناس يعلمون اليوم انها كرة سابحة في الفضاء ! وقد سبحت الارض سبحها ولم تقف لحظة عين لان سكانها سلخوا الدهور يجهلونها ويظنون بها الوقوف

***

قال لي صديق من المؤلفين المعروفين وقد رأى في يدي ديواناً من الشعر : «ما رأيك اني لأحسب ان الشعر شيء قد مضى أوانهُ وانهُ لهوٌ قد يستهوي صغار الشبان ولكنهُ